الامام المجاهد والمصلح الكبير الشيخ محمد الخالصي

مقدمة

الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ بْنُ مُجَمَّدٍ مَهْدِيٌّ بْنِ حُسَيْنٍ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ الخَالِصِيُّ الكَاظِمِيُّ الأَسَدِيُّ (1306هـ - 1343هـ / 1888م - 1963م) هو مرجع وفقيه وعالم مسلم شيعي اثنا عشري، اشتهر بقيادته لثورة العشرين في العراق ضد الاحتلال البريطاني في مطلع القرن العشرين، وعُرف بفصاحته وقوة بيانه، وهو الذي أعلن البيان التاريخي الشهير للثورة الكبرى من العتبة العباسية.[1][2]

ولد في مدينة الكاظمية المقدسة، وتعود أصوله إلى مدينة الخالص في محافظة ديالى. تربى في كنف رعاية والده الإمام الشيخ مهدي الخالصي الأسدي، ثم درس على كبار علماء عصره: والده، والآيات العظام الشيخ مهدي المرلياتي والشيخ محمد حسين الكاظمي، والآخوند محمد كاظم الخراساني، والشيخ راضي الخالصي، والشيخ صادق الخالصي، والإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي، في دروس الفقه والأصول واللغة وسائر العلوم الدينية.

كان الشيخ الخالصي، لنبوغه، قد حاز درجة الاجتهاد في سن مبكرة جداً، وكان متبحراً في العلوم الدينية إلى جانب العلوم الحديثة كالطبيعيات والرياضيات والطب. وكان يلم باللغات الفارسية والتركية والفرنسية إلى جانب تعمقه بالعربية.

وقد توفي عام 1925. كان زعيماً دينياً بارزاً في العراق خلال الفترة البريطانية في أوائل القرن العشرين. وفي ذلك الوقت كان المرجع الأعلى (عالم شيعي وزعيم روحي) في العراق.[3][4] وكان أيضاً أستاذاً ورئيساً لكلية اللاهوت في الكاظمية - بغداد - العراق.[5][6]

سيرته

في عام 1920 لعب الشيخ مهدي الخالصي دوراً قيادياً في الثورة العراقية عام 1920.[7] وفي عام 1922 أصدر فتوى يأمر فيها أتباعه وجميع الشيعة في العراق بعدم المشاركة في الانتخابات المقبلة، حتى لا يمنحوا الشرعية لحكومة أقامتها قوى أجنبية. وقد اختار العديد من العراقيين الاستجابة لدعوته وامتنعوا عن المشاركة في الانتخابات.[7]

جهاده ضد الإنكليز

شارك الشيخ محمد الخالصي في أحداث «الجهاد» ضد الإنكليز منذ أن وطئت قواتهم أرض العراق عام 1914م، فهب بمعية والده وجمع من العلماء للتصدي لهم. وخرج الشيخ الخالصي على رأس ثلة من المجاهدين إلى سوح القتال في 19 تشرين الثاني 1914 تحت إمرة والده، فقاتل بنفسه ولعب دوراً مهماً كمنسق بين قيادة العلماء وقيادة القوات المسلحة العثمانية. وبقي في جبهات القتال، بالرغم من إصابته بجرح في رأسه أضر بعينه اليمنى، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

«ويجدر بالذكر أنه كان من معارضي تقرب الملك فيصل إلى والده الشيخ الخالصي. وكان هذا التقرب من أجل ضمان حصوله على مبايعة الشيخ بملكيته على العراق».[8]

إعلان ثورة العشرين

كان الشيخ محمد الخالصي خطيباً مفوهاً، ومجاهداً صلباً، وعالماً شجاعاً؛ لذلك طلب إليه الإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي أن يخطب معلناً بدء الثورة العراقية الكبرى ضد الإنكليز، بحضور قادة الثورة وشيوخ العشائر العراقية الثائرة وفصائل المجاهدين الذين اجتمعوا في حشد كبير في صحن العباس في مدينة كربلاء، في الرابع من شهر شوال عام 1338 للهجرة، الموافق 21 حزيران 1920م. فخطب فيهم الخالصي خطابه الحماسي الشهير، الذي ثبّت به قلوب المجاهدين، وألهب حماسهم، وذكّرهم بإباء سيد الشهداء الإمام الحسين، وحذّر الإنكليز من مغبة الظلم بحق الشعب العراقي الأبي.

ولشدة تأثير هذا الخطاب في النفوس، كان الثوار يطلقون شعارات وهتافات ثورية وأشعاراً شعبية مؤيدة لقادة الثورة وعلمائها.[1] وبعد هذا الاجتماع حاصرت القوات البريطانية مدينة كربلاء، وطالبت الميرزا الشيرازي بتسليم سبعة عشر نفراً من الناشطين والمحرضين على الثورة، وكان من بينهم الشيخ الخالصي.[2]

نفي الشيخ الخالصي

بعد أن أبدى الإمام الشيخ محمد الخالصي معارضة شديدة لمعاهدة الانتداب، وانتُخب وخمسة آخرون في لجنة مهمتها إبلاغ رفض العراقيين للمعاهدة إلى مسامع الملك فيصل الأول والدول الأجنبية والمنظمات الدولية،[3] ضاقت القوات البريطانية المحتلة من دوره ودور والده في مقاومة الاحتلال ذرعاً، فأرادت الانتقام منه وفتّ عضد والده، فنفته بأمر مباشر من السير برسي كوكس في 28 آب 1922م إلى الحجاز. وبعد أن أدى فريضة الحج غادر إلى إيران.[4]

نشاطه الديني والسياسي في إيران

حين وصل الشيخ محمد الخالصي إلى طهران منفياً إليها، لعب دوراً بارزاً في توعية المسلمين وإيقاظهم في إيران، وأصدر العديد من الصحف والنشرات باللغتين العربية والفارسية، مثل «لواء بين النهرين» و«اتحاد إسلام» و«منشور نور». ولما نفي والده الإمام الشيخ مهدي الخالصي من قبل الإنكليز في 26 حزيران 1923م من العراق إلى الهند، ثم اليمن فالحجاز فإيران، بسبب إلغائه بيعة فيصل وعزله عن ملكية العراق، ثم هجرة خمسة وعشرين مجتهداً من النجف الأشرف بقيادة السيد أبي الحسن الأصفهاني والميرزا النائيني احتجاجاً على نفيه،[5] بادر الشيخ محمد الخالصي إلى تأسيس «جمعية الممثلون السامون لما بين النهرين» في طهران للدفاع عن القضية العراقية في المنظمات الدولية.

«كان الشيخ محمد الخالصي قد أُبعد إلى إيران في السنة الماضية كما أشرنا، وقد استقر في طهران. وحين حدث تسفير المجتهدين انتهز الشيخ محمد الفرصة، وهو خطيب مفوه، فأخذ يشن الحملات الشعواء على بريطانيا والمؤيدين لها. وقد ذكر السير برسي لورين في برقية إلى لندن: إن الشيخ محمد الخالصي يعد المهيّج الرئيس ضد الإنكليز في طهران».[6][7]

الخالصيان يرفضان إعطاء التعهد بعدم التدخل بالسياسة

استجدت الأحداث السياسية في العراق وإيران، فاستجاب الملك فيصل لطلب المجتهدين الذين غادروا العراق للعودة إليه، وأخبرهم أن بإمكانهم العودة إلى العراق بشرط إعطاء تعهد خطي بعدم التدخل في السياسة. فوافق العلماء، ورفض الإمامان الشيخ مهدي ونجله الشيخ محمد إعطاء تعهد كهذا بشدة، واعتبراه تنازلاً للمحتلين الإنكليز، وأصرا على البقاء في إيران ومواصلة الجهاد وبث الوعي بين أبناء هذا البلد الإسلامي؛ لذلك وصفتهما التقارير الإنكليزية بـ«العلماء المتمردين».[8]

معارضة تأسيس الجمهورية العلمانية في إيران

ومن نشاطاته في طهران معارضته لتغيير نظام الحكم في إيران من الملكية إلى الجمهورية من قبل «رضا البهلوي»، إذ كان الأخير يسعى من وراء جمهرة إيران إلى الوصول إلى سدة الحكم وتأسيس دولة علمانية على غرار جمهورية أتاتورك في تركيا. وقد سعى البهلوي لقمع جميع مخالفي الجمهورية، وعلى رأسهم الشيخ الخالصي والسيد حسن المدرس، فاعتقل البهلوي السيد المدرس في إحدى غرف البرلمان الإيراني يوم التصويت على الجمهورية وأمر أزلامه بالاعتداء عليه بالضرب. فوصل نبأ ذلك إلى الشيخ الخالصي، فقاد مظاهرة جماهيرية ضمت ما يربو على مائة ألف من أهالي طهران.[9] وبعد أن أمّهم لصلاتي الظهر والعصر، خطبهم بما جرى في البرلمان، فهاجمت الجماهير البرلمان وتسللت إلى باحته وأنقذت المدرس، واصطدمت مع البهلوي وأزلامه. وإثر ذلك اضطر رضا البهلوي إلى الاستقالة من منصب رئاسة الوزراء وغادر طهران إلى مدينة بومهن. وعن تلك الحادثة يقول السيد مرتضى الخميني (بسنديده)، الأخ الأكبر للإمام الخميني: «ومما يذكر إنه في اليوم الثاني من شهر الحمل عام 1303ش [22 آذار 1924م] اتجه كبار علماء طهران وسياسيوها وكسبتها نحو البرلمان وكنت معهم، وكان المرحوم الخالصي الذي صلى صلاة الجماعة في السوق المركزي بعد أن مُنع من الصلاة في المسجد على رأس الجموع المتجهة نحو البرلمان، وكانت كل الطرق المؤدية إلى البرلمان والساحة المقابلة لبنايته غاصّة بالجماهير التي كانت تهتف ضد سردار سبه [رضا بهلوي] والتي داهمت البرلمان فيما بعد».

إثر هذه الحادثة المصيرية في حياة إيران، والتي أدت إلى فشل تأسيس نظام جمهوري علماني في إيران

حتى قيام الجمهورية الإسلامية، بدأ البهلوي حرباً بلا هوادة ضد سماحته، وألقى عليه القبض في حادث اغتيال القنصل الأمريكي في طهران، ونفاه إلى مدينة «خاف» على الحدود الأفغانية وسجنه في قلعتها الرهيبة. ثم صار الشيخ يُنقل من سجن إلى سجن ومن منفى إلى آخر مدة 27 عاماً. فنفي إلى خراسان وتويسركان ونهاوند وكاشان ويزد، إضافة إلى سجنه في طهران وكرمانشاه. وبالرغم من الضغوطات التي واجهها في إيران، قام بنشاطات واسعة يذكرها الإيرانيون باعتزاز، منها إحياؤه صلاة الجمعة في كل بلد حلّ فيه، وتأسيسه صلاة الجمعة في حرم السيد عبد العظيم الحسني جنوب طهران.

الإمام الخالصي بعد عودته إلى العراق

اهتم الإمام الشيخ محمد الخالصي، بعد أن عاد إلى العراق إثر نفي دام 27 عاماً، بعدة أمور:

1- إقامة صلاة الجمعة على وجهها العبادي السياسي في صحن الكاظمية المطهر.

2- الاهتمام بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية؛ وقد قام من أجل ذلك بسفرات عديدة إلى المدن التي يتواجد فيها أبناء السنة داخل العراق، وكذلك إلى عدة دول منها الديار المقدسة (مكة والمدينة المنورة) ومصر وسورية وفلسطين ولبنان. وقد لقيت دعوته الصادقة إلى الوحدة الإسلامية استجابة علماء المسلمين لما وجدوا فيه من صدق النية.

3- مقاومة الأنظمة الظالمة المتسلطة على الحكم في العراق، وأهمها الوقوف بوجه الحكومة الملكية، وعبد الكريم قاسم، والمد الشيوعي الإلحادي الذي كان يستمد القوة منه، وكذلك حكم الحزب الاستعماري البعثي إبّان انقلابهم الأول. وإن ينس العراقيون قولاً فلا ينسون قوله لعبد الكريم قاسم حين اتخذ من وزارة الدفاع مقراً لإقامته: «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في وزارة الدفاع»، وقوله لعفلق: «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر ميشيل عفلق».

4- محاربة البدع والخرافات التي سادت بين المسلمين، وتنزيه العقيدة الإسلامية من الانحراف. وكانت هذه النقطة الأصعب في جهاده؛ لأن تنزيه الدين من البدع والخرافات التي يظن الجهال أنها من أصل الدين يحتاج إلى شجاعة ونكران للذات في ا، وهو ما ألّب عليه الأصدقاء والأعداء.

5- تشييد وإعمار مدرسة والده الدينية «جامعة مدينة العلم» في الكاظمية، لتكون جامعة علمية دينية يتخرج منها علماء يجمعون بين العلوم الدينية والحديثة.

من مؤلفاته باللغة العربية

بالرغم من المضايقات التي كان يتعرض لها الشيخ الخالصي واعتقالاته المتكررة في العراق وإيران، والتحريكات التي كانت تثار ضده، وفقده البصر في سني حياته الأخيرة نتيجة لسقيه السم مرات في هذين البلدين [بحاجة لمصدر]، فقد ترك الإمام مؤلفات عديدة باللغتين العربية والفارسية في الفقه وأصوله والعقائد والتاريخ والفلسفة الإسلامية والتفسير، منها:

- الإسلام سبيل السعادة والسلام (رسالته العملية المختصرة).
- إحياء الشريعة في مذهب الشيعة (رسالته العملية في عدة أجزاء).
- المعارف المحمدية.
- الوقاية من أخطاء الكفاية.
- الجمعة.
- النيروز (في بدعية عيد النوروز).
- الاقتصاد والدولة في الإسلام.
- بطل الإسلام.

• العروبة في دار البوار فهل من منقذ.

• ومؤلفات أخرى.

وفاته وتشييعه

كان الإمام الخالصي قد دعا إلى حفل أقامه في الحرم الكاظمي المطهر بمناسبة المولد النبوي الشريف، وقد حضر الحفل علماء الدين السنة والشيعة وسياسيون وممثلون عن دول إسلامية.

بعد العودة من الاحتفال بدت عليه آثار المرض، ولازمته الحمى الشديدة وعلامات التسمم. ولما اشتد به المرض نُقل إلى مدينة الخالص، ثم أعيد إلى بغداد ورقد في مستشفى الرازي. بقي فيها عدة أيام إلى أن فاضت روحه الزكية ورجعت إلى ربها راضية مرضية في آخر ساعات ليلة الجمعة، 21 كانون الأول 1963م (19 رجب 1343هـ).[9] وفي صباح الجمعة قطعت الإذاعة برامجها واكتفت ببث القرآن الكريم معلنة نبأ وفاته والحداد العام.

عندها توافد ألوف المشيعين والمودعين على مسجد براثا، وحملت الجموع جثمانه الطاهر بعد أدائها صلاة الجمعة حتى الكاظمية، مروراً بالأعظمية التي خرج أهلها للتشييع، فدفن في حجرته في الصحن الكاظمي الشريف.

المصادر

1. «الفقيه المتمرد... محمد الخالصي» - عز الدين بن محمد البغدادي، موقع الخالصي؛ نسخة مؤرشفة في 5 نيسان 2025، تاريخ الاطلاع 5 نيسان 2025.

2. «الشيخ الخالصي.. كفاح فكري وجهاد مسلح لنصرة المضطهدين وطرد المحتلين من أرض الوطن»، مركز كربلاء للدراسات والبحوث؛ نسخة مؤرشفة في 5 نيسان 2025.

3. Four-year report (April 27, 1958), of the Continuing Committee on Muslim-Christian Cooperation Incorporated: the provisional organization of the World Fellowship of Muslims and Christians، 6 ص؛ نسخة 1958 بتاريخ الإنترنت أرشيف في محفوظة 30 آب 2024.

4. The Spokesman - Volumes 81-84، 105 ص، 2004، Bertrand Russell Peace Foundation.

5- Proceedings - Muslim-Christian Convocation، 3-11 ص، 1954، Continuing Committee on Muslim Christian Cooperation؛ نسخة محفوظة في أرشيف الإنترنت بتاريخ 30 آب 2024.

6. International Journal on World Peace، المجلد 10، 68 ص، 1993، Professors World Peace Academy؛ نسخة محفوظة في أرشيف الإنترنت بتاريخ 20 كانون الثاني 2025.

7. “The Islamic Revolution of 1920”، al-islam.org؛ نسخة مؤرشفة في 14 أيار 2024، تاريخ الاطلاع 11 تشرين الأول 2015.

8. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، إيران: انتشارات الشريف الرضي، 30 حزيران 2007، ص 1244. (تظهر في الصفحة ملاحظة تدعو إلى التحقق من التاريخ).

9. “Has Iran overplayed its hand in Iraq”، American Enterprise Institute، 13 أيار 2014؛ نسخة مؤرشفة في 11 أيار 2015، تاريخ الاطلاع 11 تشرين الأول 2015.

10. مجلة «كيهان فرهنگي»، العدد 9، آذرماه 1364ش (تشرين الثاني – كانون الأول 1985م)، ص 30، طهران.

11. انتشرت الطبعة الرابعة من كتاب الإسلام سبيل السعادة والسلام مع ملحق بأحاديث الأحكام في طهران 2006م.

إحالات إضافية واردة في متن المقالة

1. اقرأ نص الخطاب في «الحقائق الناصعة في الثورة العراقية عام 1920م»، فريق مزهر آل فرعون، ص 149-158، بغداد 1952م.

2. «مرگي در نور»، عبد المجيد كفائي، ص 416، طهران 1359.

3. «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث»، علي الوردي، ج 6، ص 110-107 و142-141.

4 و5 و6. المصدر السابق، ص 195-194.

7. الوثيقة البريطانية رقم 5371/9047.O.F.

8. الوثيقة البريطانية رقم O.F. 416/73 JULY 16.1923. NO.64.

9. «شرح زندگاني من»، عبد ا مستوفى، ج 3، ص 595، طهران 1341ش.

10. مجلة «كيهان فرهنگي»، العدد 9، آذرماه 1364ش (تشرين الثاني – كانون الأول 1985م)، ص 30، طهران.

11. الطبعة الرابعة من كتاب «الإسلام سبيل السعادة والسلام»، مع ملحق بأحاديث الأحكام، طهران 2006م